الغربـــــة بين الكتب

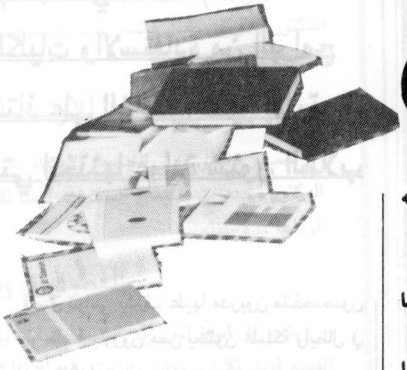

ربما يكون غريبًا عليك هذا العنوان ـ عزيزي القاريء ـ! فهل هناك غربة بين الكتب؟! وهل من غريب مع الكتاب والمتنبي نفسه يقول (وخير صديق في الزمان كتاب)؟!.. ولكن لكل وجهة نظر في هذه الدنيا، وإلا ماصلح حالها ولما رأينا تنوع الناس والأفكار والأعمال فيها، ولكن مع هذا فلابد أن تبقى القاعدة الذهبية (الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية)، وقد يكون الاختلاف دافعًا للتقدم والرقي نحو الأفضل والأجود، واختلاف الأئمة الأربعة هو ما أدى إلى ظهور هذه الموسوعات الفقهية، واختلاف القراءات في القرآن وضح بعضه بعضًا، وقد لا يظهر الشيء إلا بضده، يبدو أن الاستطراد قد أخذنا ولنرجع لموضوعنا الأصلي، لا جدال بيننا ولا اختلاف على أن الكتاب هو نعم صديق إذا أحسنا اختياره ـ وإلا فإن بعض الكتب ليزيد أثرها السيء على رفيق السوء نفسه ـ ولقد وصف المتأخرون والمتقدمون الكتاب فأجادوا ولا حاجة بنا لذلك بعدما قال فيه الجاحظ ماقال، وعبّر عنه طالب الإبتدائي بما فتح الله عليه من تعبير.

ولكن من الملاحظ أن بعض الناس ـ قديمًا كانوا أو حديثًا ـ لا يكاد يعرف غير الكتاب صديقًا ولا رفيقًا، أنيسًا ولا جليسًا، فتمضي به السنون وعيناه على هذا الكتاب أو ذاك، يقلب صفحات هذا أو يقرأ صفحات ذاك، وقد أصابه الكتاب بانقطاع عن الدنيا ـ لا أقصد ملذاتها بل أقصد الدنيا البشر والمجتمع والتفاعل معها ـ وبعدًا عن الناس، حتى عن أقرب المقربين من الأهل والولد، والأمرُّ من هذا إذا استمر في عمله هذا دون أن يجرد قلمًا، أو يكتب للناس سطرًا مما عرف ومما تعلم، وقد يصبح هذا الانقطاع بين الكتب كالعلم الذي لا ينفع والعياذ بالله، والأشد مرارةً من ذاك لو ضيع حقًا من حقوق الله كالصلاة وزيارة المريض وهو هائم بين صفحات الكتب.

أنا هنا لا أحارب القراءة ولا الاطلاع، ولكن أن يكون ذلك على حساب مصلحة ومنفعة الغير فهذا مما ينحو بهذه الهواية الجميلة وهذا الفن الراقي إلى منحىً خطير. وقد قرأنا ونقرأ وسنقرأ ـ حتمًا ـ لأدباء كبار قديمًا أو حديثًا اعترفوا من خلال كتاباتهم أن انقطاعهم للقراءة وعكوفهم على الكتاب قد أورثهم عزلة عن المجتمع، وغربةً بين الأهل والصحاب، بل قد يصل الأمر إلى غربة في النفس أيضًا، فلا أهلاً نفع ولا نفسًا وجد، واعترف بعضهم بأنه قد قصّر في واجبات أهله وولده، حتى غارت زوجته من الكتاب بل واعتبرته لها ضرة، قال أحدهم:

تغار من الكتاب إذا راتني
أطالعه وأترك وجنتيها
تضن بفكرتي فيما عداها
وتنكر نظرتي إلا إليها
وتنفر من مقال ليس فيها
ولو شمل الحياة وملحقيها
وتحسب هيكلي ومحيط إرثي
بقية إرثها من والديها
وقد ظفر الكتاب ببعض هذا
لذلك كان إحدى ضرتيها

أما عن الصراع مع الدنيا، واكتساب التجارب فيها.. فرب قائل: مادام القصد من هذه التجارب إثارة العواطف، وإثراء المعارف، فلا شك أنه لا يوجد أقدر من الكتب على إثارة تلك العواطف، وعلى إكسابك تلك المعارف المطلوبة ولكني أترك الرد على لسان كاتب جرّب هذا الأمر واكتشف سره، وهو إبراهيم المازني حيث يقول في كتابه (سبيل حياة): وأردت أن أعرض على ذهني ما أمدتني به الكتب من الهداية، وأن أبسط تحت عيني المصور الذي رسمته لنفسي بمعونتها، فإذا الذي في رأسي ضباب، وإذا المصور تتداخل دروبه ومسالكه وتختلط حتى لا سبيل إلى التمييز بينها. وإذا ظاهر التجريب لا يغني عن التجريب، وتوهم الفهم ليس معناه الفهم الصحيح، وإذا بي قد شارف عمري على الأربعين ومازلت في مبلغ علمي بالدنيا وفهمي للحياة وإدراكي لحقائقها، طفلاً يمد أصابعه إلى الجمرات يحسبها لعبة أو طعامًا).

هذا بالإضافة لما قد يورثه الكتاب ـ مع طول النظر والتدقيق والاعتكاف عليه ـ من عمش في العينين، وتقوس في الظهر، وماذكرناه من الغربة بين الأهل ووحشة في النفس، ولا نريد أن نتهم الكتب بقتل الجاحظ، فقد كان مفلوجًا عندما سقطت عليه، وهاهو أبو حيان التوحيدي ينقلب على كتبه التي أفنى فيها عمره وهو يحرقها في آخر حياته بعدما لاقاه من جفاء من معاصريه، فكأنه لم يفعل شيئًا، وكأنما ضاعت سنوات عمره بين الكتب دونما فائدة.

أرجو الا يجد كارهو القراءة في هذا المقال تنفيسًا عما في صدورهم من بغض للكتاب، ولا عذر لهم في جهلهم.

ومهما قال المتشدقون بالحضارة الحديثة ومبتكراتها، فلن تأخذ مكان الكتاب أبدًا، ويبقى على مر الأجيال هو المعلم الأول ولكن دون.. إفراط ولا تفريط.

أحمد بن علي الصرخي